

تفريغ

:. الدرس الثاني .:

شرح سورة الأنعام

للشيخ:
أبو قتادة عمر بن محمود

التحايا للإعلام الجهادي
قسم التفريغ
١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

الدرس الثاني

من شرح الشيخ/ عمر محمود أبو قتادة

لسورة الأنعام

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين حبيبنا وإمامنا وقائدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله -عزَّ وجلَّ- وإياكم منهم، آمين. أما بعد؛

تتمة المقدمة

أيها الإخوة الأحبة، كنا البارحة قد تكلمنا على ضرورة تذوق البيان عن طريق القرآن من أجل إعادة وبناء حقيقة الإنسان المؤمن، الذي يتعامل مع القرآن تعاملًا حقيقيًا صحيحًا. وقلنا البارحة بأن الطريق الوحيد لإعادة تفعيل القرآن في القلوب وفي حياة الأمة هو أن نعيد تذوقه، بشرط أن نتذوقه التذوق الذي عاشه الصحابة أو قريبا منه.

ونحن في هذا الزمان يكفينا في كل الأبواب أن نكون على مقدار عشر الصحابة، سواءً في أبواب العمل، أو وفي أبواب العلم؛ فإننا لو أتينا بعُشر ما أتى به الصحابة من العمل ومن إرادات القلوب ومن العلم فإنه يكفينا وينجينا ويحصل لنا ما حصله الصحابة من النجاة في الآخرة ومن الفوز في الدنيا.

فلن نستطيع أن نعيد الجيل الأول لأنه جيل طبيعي، ونحن حين نتدرب ونتعلم فإنما هي صناعة، والفطرة ولا شك حين تكون علمًا؛ تكون أجلَّ وأعظم من الصناعة. والإنسان صناعة كما قال الله -عزَّ وجلَّ- عن موسى -عليه السلام-: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}؛ فالإنسان صناعة، فأبواه يهودانه: يصنعانه، يغيرانه، ولذلك لا بد أولًا من وجود الفطرة ونحن قد فقدناها، فهذه الفطرة طُمست وغُيرت وبُدلت.

ونحن ندعو إلى إعادة إحياء أعمال الإيمان من خلال القرآن؛ لأن القرآن ليس كما يقول البعض -حتى بعض الملتحين والمشايخ أو من يُسمون بالمفكرين- بأنه كتاب عمومات، هذا من أضلِّ الأقوال التي سرت في هذه الأمة حتى زهدتهم في الاستنباط والنظر في القرآن. فقالوا: "هذا كتاب عمومات، ولك بعد ذلك أن تملأها؛ إما أن تملأها بالسنة، أو أن تملأها بالفكر وتملأها بالتجارب". وهذا باطل وغير صحيح.

نعم؛ القرآن ليس كتاب جغرافيا وليس كتاب فيزياء؛ لكن القرآن كتاب القيَم، وكتاب حركة الأنبياء من أجل تحقيق النصر والفصل بينهم وبين أعدائهم، والقرآن فيه الكفاية التامة في هذا الباب. ولو أردنا الهداية، وأردنا النجاح، وأردنا العزة والسؤدد، وأردنا تغيير هذا الواقع من قيمه الجاهلية إلى قيم إيمانية صحيحة؛ فلا بد أن نعود إلى القرآن، ومن غير عودة إليه لا يمكن أن تحيا الأمة ولا يمكن أن تعود. **وطريقة إحياء القرآن هو أن نتذوقه.**

والقرآن كلام عرب، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ **حُكْمًا** عَرَبِيًّا}، قال الله عن القرآن أنه: {قرآنا عربيًّا}؛ ولكن في هذه الآية من سورة الرعد كان الحديث أبعدَ في أن جعله {**حكمًا** عربيًّا}، وكأنَّ القرآن ليس فقط كلامًا يماثل لغة العرب في خطابهم؛ لكنه كذلك يمازج مزاج العرب في سلوكهم، فجعله **حكمًا** عربيًا.

ولذلك الإمام الشافعي -رحمه الله- جعل معيار الخبث حين يغيب النص هو العربي. وهذا ليس من قبيل العنصرية؛ ولكن لأن هذا المجتمع العربي مجتمع بقيت فيه الكثير من آثار النبوة -المقصود ليس عرب اليوم، بل أمة العرب الذين نزل عليهم القرآن-، وبحمد الله ما زال العرب هم أعدل الناس أمزجةً، وهذا ليس من العنصرية، هذا من قبيل بيان أثر القرآن على هذه الأمة، وأثر النبوة عليها.

من الذي نشر الكرم في أمة العرب؟ الذي نشر الكرم في العرب هم الأنبياء، هو إبراهيم -إمام الكرماء- وابنه إسماعيل -عليه السلام-، وكذلك الصدق في الكلام والشجاعة، من أول من زيل الخيل؟ هو إسماعيل -عليه السلام-، بمعنى أنه دجنها. من أول من فُتق لسانه بهذه اللغة الشريفة الجليلة التي هي اللغة التي استوعبت إعجاز القرآن؟ هو إسماعيل -عليه السلام-.

وقد قال ابن خلدون -رحمه الله- بأن السبب في عدم وجود الإعجاز في غير القرآن هو أن اللغة التي نزلت بها الكتب السماوية الأخرى لا تستوعب الإعجاز، فالتوراة ليس فيها إعجاز، والإنجيل ليس فيه إعجاز، وصحف إبراهيم وموسى ليس فيها إعجاز، فلمّا كملت لغة العرب كمالًا عظيمًا شريفًا جليلًا؛ صارت آلةً تستوعب إعجاز القرآن.

فهذه الأمة لا يمكن أن تعود إلا بأن تعود إلى القرآن، ولا يمكن أن تعود إلى القرآن حتى يعود إليها تذوق هذا البيان العظيم.

كيف أدرك العربي أن القرآن كلام الله؟

وقد وعدت البارحة –وإن كان ليس هذا في إطار الموضوع- أن أوضح كيف أدرك العربي أن هذا القرآن هو كلام من الإله، وتكلمت البارحة عما يُسمى بالإعجاز العلمي مرورًا عليه، وقلنا أنه ليس إعجازًا.

نعم؛ هو من الآيات الدالة على أن القرآن من عند الله، ولكن هذا الإعجاز العلمي ليس إعجازًا، فالإعجاز هو الذي به تمَّ تمام البيان والبلاغة الذي تحدث به القرآن، وهذا هو الباب الذي لما لامس أسماع وقلوب العرب؛ أخرجهم من الجاهلية، من قوم لا قيمة لهم ولا شأن لهم في الحياة إلى أن يحكموا العالم، تنطلق إرادتهم على الخيول وعلى الجمال قاصدين بأن يبلغوا أقاصي الأرض وأن يحكموها، وأن يكسروا ويهمزوا الإمبراطوريات والدول! من الذي فعَّل هذه الإرادة العظيمة في قلوب هؤلاء البسطاء؟ إنه القرآن.

وأنا أفتتح بهذا لأنه جزء مهم في قراءتنا لسورة الأنعام، ونحن سنركض كثيرًا وسنلهث وسنتعب في محاولة إدراك **بعض** ما أدركه العرب حين سجدوا لهذا القرآن ولهذا الكلام العظيم الجليل.

العرب لهم موازين، فكيف أدرك العربي جلالة هذا القرآن وأنه لا يمكن أن يخرج من إنسان؟

أدركوا هذا من خلال نقطتين:

الأولى هي التي تكلمنا عنها: من خلال شعرهم وحكمتهم، ومن قواعد الشعر العظيم لد أنهى العرب أنه لا يُسمى الرجل شاعرًا حتى يكون حكيمًا، فإذا نطق بالحكمة عُدَّ شاعرًا، ثم يُنظر بعد ذلك إلى صياغة كلماته، وكيف هو يركب المعاني من خلال هذه الألفاظ المنثورة عندهم.

وللذكر أيها الإخوة الأحبة؛ نحن في حياتنا اليوم لا نستخدم من كتاب (لسان العرب) إلا عُشر ما فيه من جذور لكلمات، والعرب من أقصاهم إلى أقصاهم لا يستخدمون إلا عشر ما في (لسان العرب) من كلمات، وإلا فبقية الكلمات مهجورة. وأما عن (لسان العرب) فيقول أبو عمر بن العلاء: "نحن لم يصلنا من لغة العرب إلا القليل"! فتصور ما كانت عليه لغتهم من امتدادها.

وذكرنا البارحة قول الإمام ابن تيمية -رحمه الله-: **"كلما اتسع ذهن المرء؛ اتسعت عبارته"**. لأن الكلمة تعبير عن حقيقة؛ إما حقيقة مادية مثل: مسجد، حائط، إنسان، وهكذا، وإما حقيقة معنوية: الصدق، الأمانة، الشجاعة، الوعي، الفكر، فكلما اتسع ذهن المرء؛ احتاج إلى عبارات أكثر من أجل أن يعبر عما يجول في ذهنه، ولذلك أوسع الناس ذهنًا في الأمم السابقة هم العرب.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله- في (الرسالة): "لا يحيط بلغة العرب إلا نبي، كما أنه لا يحيط بأحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا نبي"، أي: كما أن الحديث -جميع الحديث- لا يحيط به إلا نبي؛ فكذلك لا يحيط باللغة العربية وبجميع ما فيها إلا عربي.

فما هو الذي في نفس العربي السائر في الصحراء، المتأمل لهذا الوجود، الذي ينطق لسانه بالحكمة، ويتغني بها في فلواته وفي صيده وفي قيامه وفي قعوده وعلى فراشه؟ **كيف فهم أن هذا القرآن من عند الله؟**

العربي قد بلغ الذروة بالنسبة إلى هذه اللغة، لكنه كان يشعر بالنقص، كأن هناك ثمة ضوء بعيد مع هذه اللغة يركض إليها من خلال شعره: هو يركض، ويقول شعرًا عظيمًا ويتغنى به ولكنه مع ذلك يشعر أن هذا الكلام لم يبلغ ما يريد من تصوره وتخيله لكمال البيان الذي يطمع إليه، وهذا شيء يعرفه الصناع.

لو سألت صانعًا ما وقلت له: ما الذي تتخيله؟ يقول لك: في ذهني شيء إلى الآن لم أترجمه إلى واقع. فهو يعيش في خيال، وفي لحظة تأمل لبلوغ الكمال فيما هي صناعته.

والعربي صناعته الكلام، وهو منفذ القوة بالنسبة إليه في فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ-، فكان العربي يحاول جاهدًا مع هذه اللغة الكاملة الشريفة الجليلة أن يصيغ كلامًا عظيمًا حكيمًا تامًا بليغًا جليلًا يصل إلى مرتبة ما أحدث في ذهنه من كمال مع هذه اللغة، لكنه يضعف.

وأنا أضرب دائمًا مثالًا في هذا: العرب تقول إن أشعر العرب هو امرؤ القيس، وفي مطلع معلقته يقف النقاد ويطربون لشطر البيت الأول الذي يُسمى الصدر، يقول: **"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"**، فهم رأوا أن هذه الكلمات

القليلة قد أرادت أن تعبر عن شيء عظيم، وهو تذكر وذكَّر وبكى واستبكى ووقف وأوقف في هذه الجملة الصغيرة، فهم طربوا لها، لكنهم بعد ذلك أرادوا أن يروا هذا الكمال في الشطر الثاني فوجدوه كلامًا مغسولًا، ما معنى كلامًا مغسولًا؟ يقول العرب هذا كلام مغسول، يعني غسلناه فلم يبقَ فيه أي لون يُطرب له ولا يهتز له. فهو قال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *** **بسقط اللوى بين الدخول فحومل**.

فبعد جلال الكلام الأول سقط وذكر أسماء قرى وأسماء أماكن!

فهم يشعرون بالضعف ويعجزون أن يبلغ كلامهم مبلغ ما يتصورونه من جلال الكلام، فلما جاء القرآن؛ التقطوه، ورأوا أنه يمثل لديهم ما تصوروه من جلال الكلام الذي لا يبلغ بعده جلال، ويبلغ من الكمال ما لا يبلغه كمال؛ فعلموا أنه لا يمكن أن ينطق به رجل، لماذا؟

للنقطة الثانية:

العرب الذين رأوا في القرآن مبلغًا لا يعرفونه من كلام حكمائهم ولا كلام بلغائهم، ولا كلام متكلميهم وخطبائهم؛ يعلمون أن الكلام يعبر عن نفس متكلمه، فإذا كان المتكلم شجاعًا؛ عبر الكلام عن شجاعة متكلمه، وإذا كان الرجل حكيمًا؛ تكلم عن حكمة، فدلالة حكمة الرجل عندهم هو كونه يقول كلامًا حكيمًا ويبين عما في نفسه، ودلالة شجاعة الرجل هو إبانته عن شجاعته.

فهم يعرفون أن الكلام يعبر عن نفس صاحبه، ولما نظروا إلى القرآن فوجدوا أنه لا يعبر عن نفس بشرية قط. حين يقول الله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ}، هذا الكلام لا يمكن أن يعبر عن نفس بشرية؛ لأن النفس البشرية فيها الضعف، وهذا كلام فيه الكمال، ولا يمكن أن يكون في الإنسان الكمال.

فهم نظروا إلى جمال اللغة وعظمتها ثم نظروا إلى نفس المتكلم وعظمتها؛ فالتقى -كما يقول العرب- البطانان، وهما جمال اللغة في جلال عظمتها ونهاية كمالها مع جلال المتكلم في كماله أنه ليس فيه النقص وليس فيه الضعف، وليس

فيه الحاجة، بل هو عندما يتكلم عن نفسه –جل في علاه– يعبر عن رحمة عظيمة، ويعبر عن هذه الرحمة ليس بضعف ولكنه يعبر عنها مع كبرياء، ومع هذه الكبرياء يعبر كذلك عن الرحمة.

هذه النقطة في الجمع بين الكمال في أنه عزيز، ومع العزة كمال الحكمة بها أدركوا أن القرآن هو كلام الله؛ فالناس يكون منهم العزيز الملك ويكون غبيًا وليس حكيمًا، وربما يكون الحكيم ولا يملك سيفًا ولا مالًا. ولكن هذا غني، عزيز، حكيم، عالم، وله نفس عظيمة عبرت عن إله عظيم؛ فعلموا أن هذا الكلام لا يمكن أن يخرج من إنسان، لأنه لو خرج من إنسان لظهر فيه الضعف إما من جهة البيان، وإما من جهة التعبير عن نفس متكلمه أنها ضعيفة.

هذا الذي شرحته لكم هو خلاصة ما جرى عليه العلماء الكبار في تفسير ما يُسمى بالإعجاز القرآني، منذ أن تكلم الإمام الباقلاني، وهذه أسماء عظيمة، ولو كنا أمة تحترم ثقافتها وتحترم تاريخها؛ لكان أمثال هؤلاء العلماء نعرفهم أكثر مما نعرف آبائنا، فهؤلاء علماء عظام، أورثوا لنا هذا العلم وكشفوه، وأرادوا أن يبينوا لنا قبسًا من نور هذا الكتاب العظيم فتحدثوا.

وباب الإعجاز هو باب الهداية، باب الإعجاز هو باب الفقيه، ولا يمكن للفقيه أن يأخذ من القرآن حتى يكون عالمًا بهذه الأبواب، ولا يمكن للخطيب أن يُفعِّل القرآن في أذهان سامعيه حتى يكون عالما بهذه اللغة الشريفة وبمصادر جمالها، وبكيفية صياغة الجملة الجميلة الجليلة العظيمة.

ونحن نحاول أن نقف وقوفًا يسيرًا على بعض ما قاله الأولون، وقد نأتي إليه من جهة أخرى وإلا فهي صورة مكرورة قد عرضها الأوائل، ونحن نتكلم فقط عما قالوه.

وأعرف ما يتكلم به الناس اليوم، يقولون: "نريد اجتهادًا جديدًا للأمة"، "القدماء لا يستوعبون حاضرنا"، ومثل هذه الكلمات يقولها من لا يقرأ كلام الأوائل ولا يعرفه، ويريد أن يمسك كلامهم وتراثهم وما ورثوه لنا ويغلق عليه من أجل أن يسرح ويمرح فيما يقول من غير ضابط.

فنحن من خلال ما نقول في هذه السورة؛ نحاول أن نصل إلى ما وصل إليه الأوائل، وقد اعترفوا أنهم يحاولون فهم ما يقولون على جهة **الصناعة**. وأما الصحابة فقد فهموا هذا على جهة **الفطرة والتذوق والنشور**، وقد تنفسوا اللغة كما يتنفس المرءِ منا المزاج من أبيه وأمه ويعرف حس الغضب من وجه أبيه إذا رآه على صورة يكرهها، وإذا رأى انبساط وجهه يعرف أنه فرح بمثل هذا العمل. فهذه اللغة (لغة البدن) التي يرثها أبناؤنا منا؛ ورثها العرب من آبائهم وفي بيئاتهم وفي حياتهم، فكانوا يحسون بها، ويطربون لها طرب الفطرة العظيمة. وأقول "الفطرة **العلمية**"، لأن الفطرة قد تكون علمية وقد تكون على أصل الخلقة كما قال ربنا –سبحانه وتعالى–: {أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا}، ليس فيها علم.

وأنا –كما قلت لإخواني البارحة– لا أحب المقدمات الطويلة، وذكرت لماذا اخترت هذه السورة؛ لأن فيها قواعد الشخصية التي أنشأها القرآن المكي، فخلاصة ما ورد في السور المكية تجمعها هذه السورة.

بداية التفسير

نقول وبالله التوفيق، يقول الله –سبحانه وتعالى–: **{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}**.

سورة الأنعام سُميت بهذا الاسم لكثرة ما ذُكر فيها من الأنعام. والأنعام أُخذت من النِّعَم، والنعم هو كل نعمة يزجيها ربنا –سبحانه وتعالى– على عبيده، ولكنها على صفة الاختصاص والاصطلاح؛ فالأنعام هي أجلُّ ما يقتني العرب، وهي الجمال والنوق وما معناها من أبنائها، فسُميت هذه السورة بهذا الاسم، لأنه قد ذُكرت الأنعام فيها.

واختلف أهل العلم **هل تسمية السور توقيفي أم أنه اجتهادي**. بمعنى هل أخبر الرسول –صلى الله عليه وسلم– الصحابة اسم كل سورة فلم يبقَ لهم أي اجتهاد؛ أم أن الصحابة اجتهدوا في هذه التسمية؟ لا نريد أن ندخل في هذا

الخلاف، لكن مما لا شك فيه ومقطوع به أن بعض السور قد سماها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يكفي، بعض أهل العلم يرى أنها اجتهادية ولهم أدلتهم، وبعضهم يرى أنها وضعية اصطلاحية ولهم أدلتهم، ولكن المجزوم به أن بعض السور قد سماها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كالبقرة وآل عمران والفاتحة وبعض السور الأخرى.

هذه السور أيها الإخوة الأحبة، هي من السور التي افتتحها الله -عزَّ وجلَّ- بالحمد، ولا أريد أن أذكر الكلام عن {بسم الله} فإن محل شرحها في بداية القرآن مع سورة الفاتحة، ومع اختلاف أهل العلم في "بسم الله الرحمن الرحيم" هل هي للبركة، أم أنها آية من السورة، وهناك قول ثالث عليه بعض المحققين وهو اختيار شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله-، أن "بسم الله الرحمن الرحيم" هي من كلام الله، أي كانت تنزل من السماء آية، لكنها ليست من السورة، محاولةً لتوفيق بين الأحاديث المتعارضة في هذا الباب.

نقول وبالله التوفيق بأن هذه السورة هي إحدى السور التي افتُتحت بحمد لله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وعدد السور التي افتُتحت بحمد الله خمس سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

فهذه السور افتُتحت بالحمد لربنا -سبحانه وتعالى-، وهي شاملة لنعمتين في الوجود، وهما كمال النعم:

أما **النعمة الأولى** فهي نعمة **الخلق والإيجاد**، كما في هذه السورة: {الحمد لله الذي خلق}، وكذلك في: {الحمد لله رب العالمين}، فالرب هو الخالق، وأجلُّ حمد هو الذي في سورة الفاتحة، وهو شامل لكل محامد القرآن، وهذا سنبينه.

وأما الحمد الثاني بعد حمد الخلق والإيجاد فهو حمد **الهداية للخلق**، وهذا كما في سورة الكهف: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ}، فذاك حمدٌ لخلقه، وهذا حمدٌ لهدايته.

والوجود كله قائم على هذا: إما مخلوق، وإما خالق: {لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}؛ فالله له الخلق (جميع الخلق)، فهو محمود لما خلق، وهو -سبحانه وتعالى- محمود لما هدى (الأمر): {الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}، وإن كانت هنا {هَدَى} بمعنى الهداية القدرية، يعني أن الله خلق الإنسان على هيئة التزاوج فهداه لهذا الفعل، وليس المقصود به الهداية النازلة في الكتاب والنازلة على ألسنة الرسل.

{الحمد لله}:

هذه الكلمة أيها الإخوة الأحبة؛ الحديث يثبت أنها أفضل الدعاء، والناس يعجبون، يثنون على الله -سبحانه وتعالى- وينسون أن هذا الحمد وهذا الثناء على الله هو دعاء لربنا -سبحانه وتعالى-.

كيف يكون الثناء على الله -عزَّ وجلَّ-، وكيف يكون الحمد لربنا -سبحانه وتعالى- عبادةً بها يتحصل المرء العطاء؟ ففي الحديث: (والحمد لله خير الدعاء)، فالدعاء هو الحمد لله، كيف؟

هذا يعيدنا إلى كلام العرب، هل العرب يعتقدون أن الثناء سؤال؟ نحن علينا أن نفهم القرآن على ما فهمه العرب في لغتهم. يقول الشاعر أمية بن أبي الصلت -ونُسبت لغيره-، يقولها لملك أو لعظيم أو لغني، وهو عبد الله بن جدعان التيمي وهو عم أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-. يقول له:

أَأَذكُرُ حاجَتي أَم قَد كَفاني ** حَياؤُكَ إِنَّ شيمَتَكَ الحَياءُ

إِذا أَثنى عَلَيكَ المَرءُ يَوماً ** كَفاهُ مِن تَعَرُّضِهِ الثَناءُ

هذا الكلام يفسر كيف أنك إذا حمدت الله فقد دعوته وطلبت منه وسألته؛ فالشاعر وقف على رأس الممدوح وأثنى عليه، وذكر من خصاله التي فيها المحامد لهذا الممدوح، بعد ذلك قال: "أأذكر حاجتي"، أي: هل الآن أذكر الحاجة أم أتوقف، "أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك، إن شيمتك الحياء".

لماذا قال هذا؟ الجواب هنا:

"إذا أثنى عليك المرء يومًا **كفاه من تعرضه الثناء**"؛ فإن الثناء **كافٍ** بأن يقضي المسؤول والمحمود حاجة الواقف بين يديه، وكافٍ بألا يسأل المحتاج حاجته إلى الممدوح.

فما معنى الحمد؟

قال -صلى الله عليه وسلم-: (والحمد لله تملأ الميزان)، لماذا تملأ الميزان؟ لأن الميزان له كفتان كما تعلمون، كفة فيها العطاء، والذي يجازي العطاء هو الشكر، وإن كنا سنبين أن الحمد أجلُّ من الشكر في باب.

فإذًا هناك كفتان: كفة العطاء الإلهي لك والمنن الإلهية التي تُزجى إليك فلا بد أن تُملأ، والذي يملأ الكفة الثانية هو الحمد، ولذلك قال: (الحمد لله تملأ الميزان)، وهي كافية عند ربنا بألا يسألك يوم القيامة عما قاله عنهم: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}.

الحمد والشكر والمدح

فما معنى كلمة "الحمد" وما الفرق بينها وبين كلمة "الشكر"، وما الفرق بين "الحمد"، وبين "الشكر" وبين "المدح"؟

بعض العرب يقول أن هناك تكرار، وأن الحمد هو الشكر والشكر هو المدح، ويمكن أن تضع كل كلمة مقابل الأخرى وبدل الأخرى؛ ولكن المحققين وأهل البلاغة والذوق يرفضون هذا، ويقولون أنه صنيع لا ينبغي أن يقبل عليه أحد، فإن العرب تفرق بين الأشياء حتى لو ظهر أنها مترادفة. لكن هناك فرق يسميه العلماء: **"العموم والخصوص"**، بمعنى أن الكلمتين قد تشتركان في شيء، ولكن لكل واحدة معنى مختلف عن الأخرى.

عليك أن تشبه بدائرتين قد امتزجتا في بعضهما البعض، فهناك كمية كافية مشتركة بين الدائرتين، وهناك مساحة تشمل كل واحدة على حدة وتختص بها.

فما هو الحمد وما هو الشكر وما هو المدح عندهم؟ الأصوب اعتبار أن بينهم عموم وخصوص.

ولذلك يرى بعض أهل العلم أنه لا يوجد **تكرار** في القرآن –والتكرار أن تعيد الكلمة نفسها مرة أخرى–، لأن هذا ليس من كلام البلغاء، لا بد للبليغ حين يتكلم أن يؤسس معنًى جديدًا.

وأنا لم أقرر في هذه الدروس أن أبدأ بمقدمات التفسير، لأننا في الحقيقة سنأخذ مقدمات التفسير من خلال التفسير.

يقول العلماء: **"التأسيس خير من التأكيد"**.

ما هو الأفضل حين تقرأ الكلام وتظن أنه متشابه؛ أن يكون مكررًا أو أن يكون ذا معنًى آخر؟

الجواب: أن يكون هناك معنى آخر، فإذا وجد المعنى الآخر؛ دلَّ على أن الرجل يتفنن في الكلام وفي إظهار المعاني؛ ولذلك قالوا: تأسيس المعاني –بمعنى أن يظهر معاني جديدة– خير من تأكيدها. ومن هنا لا يجوز لك أن تقول أن "الرحمن" هو "الرحيم" وأنها ذكرت للتأكيد، لا ينبغي هذا؛ فإن الرحمن فيها من الخصال والصفات ما لا توجد في الرحيم، فلا بد أن تفهمها.

معنى "الحمد":

ومن هنا فكلمة "الحمد" عند العلماء تعني: **"الثناء الحسن على الجميل الاختياري"**. والتعريف دائمًا يريد أن يبين لك خصائص ما يعرف به ويخرجه عن غيره حتى يتميز في الذهن.

ما معنى "**الجميل الاختياري**"؟

العلماء يقولون الجمال يكون على قسمين: جمال يتعدى إلى الآخر، وجمال لا يتعدى إلى الآخر.

لو قلتَ عن رجل أنه جميل؛ فجماله لا يتعدى إليك، لكن لو قلت عنه أنه كريم؛ فإن كرمه يتعدى إليك. فهناك صفات يُثنى فيها على المرء لا تتعدى إلى الآخرين، وهناك صفات في الممدوح والمثنى عليه تتعدى إلى الآخرين، و**الجميل الاختياري** هو الذي لا يكون فيه تعدٍّ للآخرين.

فالله -عزَّ وجلَّ- أعظم الحمد له أن تثني عليه لا بسبب إنعامه عليك؛ ولكن بسبب جماله الخاص به.

ما هو أعظم الثناء على الله؟

يجوز لك أن تقول الحمد لله أن رزقتني الولد، هذا جيد، يجوز لك أن تقول الحمد لله الذي أعطاني المال، هذا جيد؛ فهو ثناء على جميل متعدٍّ، أي ثناء على الله بجميل تعدى إليك، ولكن أعظم من هذا كله:

"الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه"، ما الذي تعدى عليك في جمال وجلال وجهه؟ لا شيء، فأنت تحمد الله -عزَّ وجلَّ-لخصال فيه، هذه الخصال هي خصال الجمال والكمال، وهي التي عندنا نسميها بالأسماء الحسنى؛ فهي لا تتعدى، وهناك صفات تتعدى.

فأعظم الحمد لربنا أن تثني عليه قبل أن تبلغك نعمه، وقد قلنا البارحة بأن **غنى الله ذاتي**، ما معنى غنى الله ذاتي؟

فأي إنسان غني إنما هو كذلك لأنه جاءه ما قضى حاجته، فهو في النهاية محتاج، وقُضيت حاجته بغيره (بالمال).

لكن الله -عزَّ وجلَّ-؛ هل هو غني لأنه خلق الخلق فصار عنده ملك، فلما صار عنده الملك صار غنيًّا، أم أن ربنا -سبحانه وتعالى- هو الغني قبل أن يخلق الخلق؟ هو غني قبل أن يخلق الخلق؛ **فإذًا هو مستحق الحمد قبل خلق خلقه،** لما فيه من صفات الجلال، ولما فيه من صفات الجمال، وهو الذي سماه العلماء ب"الجميل الاختياري"، أي الذي لا يتعدى إلى غيره.

الفرق بين الحمد والشكر:

وجدنا أن الله -عزَّ وجلَّ- قد يُحمَد باللسان وبالقلب: أن تثني على الله بلسانك، وتثني على الله بقلبك؛ لكن لا يمكن أن تثني على الله -عزَّ وجلَّ- بيدك، ولا بعطائك، هذا ليس ثناءً يدخل في باب الحمد، ولكنه-جل في علاه-

قال عن الشكر: {**اعْمَلُوا** آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}، فسمى الشكر عملًا، وهذا لا يكون في الحمد.

فالشكر أوسع آلةً: يكون الشكر باللسان، ويكون الشكر بالقلب، ويكون الشكر بالعمل، لكن الشكر لا يكون إلا على الجميل المتعدي، ولا يمكن أن تشكره على ما لا ينفعك، كأن تقول: أشكرك لأنك جميل، لكن تحمده لأنه قوي، تحمده لأنه تام كامل وفيه الصفات الحسنى.

ولذلك قالوا **الحمد أوسع مقتضى**، بمعنى أن الذي أوجب الحمد أوسع. ما الذي أوجب الحمد؟ أوجبته صفات الجمال والجلال، وصفات الكرم والعطاء، بخلاف الشكر، فإن الشكر لا يكون إلا على ما أنعم عليك، لكن الشكر أوسع آلة فالحمد لا يكون بالعمل.

لذلك قالوا: **الشكر أوسع آلة وأضيق مقتضى، والحمد أوسع مقتضى وأضيق آلة**.

فهذا الفرق دقيق، ويمكن للعبد أن يستخدم الشكر مكان الحمد؛ ولكن البلغاء لا يقبلون هذا، ويضعون الحمد في موطنه، ويضعون الشكر في موطنه.

لهذا فالأعظم بالنسبة لربنا وما يفرحه هو أن تحمده؛ لذلك لا يوجد كلمة في ديننا وفي سنة رسولنا أعظم من كلمة الحمد حتى أنها نافست عند أهل العلم كلمة التوحيد!

أبو عمر بن عبد البر أنشأ مناظرة: ما الأفضل أن تقول؛ الحمد لله أم تقول لا إله إلا الله، مع أن كلمة "لا إله إلا الله" لا يمكن لأحد أن يدخل الجنة إلا بها، ومع ذلك فجلال كلمة "الحمد" في نظر العالم قد بهره نورها حتى صارت منافسة لكلمة التوحيد، فهذه الكلمة العظيمة استغرقت الوجود كله، هذه الكلمة العظيمة كما أنها ملأت الميزان فهي استغرقت الوجود كله: افتتح الله -عزَّ وجلَّ- الوجود بالحمد، ومضى هذا الوجود بالحمد، وخاتمته بالحمد.

فالله قال الحمد لله في الأولى والآخرة في سورة سبأ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، قوله فيها: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ}، وقوله في سورة القصص: {لَهُ الْحَمْدُ فِي **الْأُولَى وَالْآخِرَةِ**}، {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ويُفتتح الحمد ليشمل الوجود في سورة الفاتحة:

انظروا إلى قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فهو محمود لأنه ربهم، والرب هو الموجد الخالق وهو الرازق الذي منه الإمداد والعطاء، ولا استمرار إلا بمدد وعطاء منه فهو ربنا، وهو المحيي وهو المميت، فهو رب العالمين، فحُمد لأنه رب العالمين، وحُمد –جل في علاه– بـ{الحمد لله رب العالمين} لماذا؟ حُمد لأنه {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}.

فإذًا الحمد يشمل كل شيء، وما من شيء في الوجود إلا وهو دال على عظمة الله التي توجب الحمد، ثم إن عاقبة كل شيء ومصير كل شيء إليه؛ فهو مستحق الحمد لأن كل شيء يعود إليه –جل في علاه–: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

لذلك قالوا أن هذا الحمد الذي في سورة الفاتحة يستغرق المحامد كلها، فلو قال قائل أين ما قاله الله –عزَّ وجلَّ–: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}، أين هي في سورة الفاتحة؟ لأنه {الرحمن الرحيم}، وأنزل على عبده الكتاب ليميز بين المسلم والكافر، كي تكون عاقبة المؤمن في الجنة، وتكون عاقبة الكافر في النار، فهو {مالك يوم الدين}.

لذلك ما من حمد في القرآن إلا وهو مستوعب في الحمد داخل الفاتحة، والله –عزَّ وجلَّ– حمد نفسه في السموات والأرض، حمد نفسه لأنه أنزل الكتاب، حمد نفسه –جل في علاه– لأنه أعطى، وحمد نفسه في هذه السورة –سورة الأنعام– في الآية خمسين: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ}، هذه هي نتيجة الخصام ونتيجة الفصل بين المؤمن والكافر في الدنيا، أن قضى الله بينهم بأن نصر المؤمن على الكافر، وبهذا استحق الحمد {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

بينّا الفرق بين الحمد والشكر، وقلنا أن الحمد أوسع مقتضى وأضيق آلة، والشكر أوسع آلة وأضيق مقتضى؛ **فما هو المدح؟**

الفرق بين الشكر والحمد والمدح يقوم على عمادتين:

العمادة الأولى: أن المدح يقوم على الظن، فيمكن أن يمدح المرء شيئًا لا يستحقه؛ ولذلك قالوا أن المدح يقوم على الظن.

والشيء الثاني أن المدح يكون لما لا إرادة له. فلا يصح أن أقول: أنا حمدت الجوهرة، ونقول: أنا مدحت الجوهرة، وهو مدح المسجد.

فالمدح يكون جائزًا فيما يقوم على الظن، ويكون جائزًا فيما لا إرادة له، ونحن ما زلنا مع {الحمد لله رب العالمين}، وبهذا أختم، بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.